الفصل العشرون
"حطام قلب"

عاد أحمد إلى المنزل يحمل بيده حقيبة سفر صغيرة، تفاجأَت به سارة بينما كانت تخرج إلى البراندا لتجلب إناء المياه الفارغ؛ فهتفت بتعجب:

- آه أحمد باشا جيت أخيرًا! إيه الشنطة دي؟!

رد بتثاقل:

- شنطة جنّة فيها لبسها اللي هتحتاجة اليومين اللي هتقعدهم هنا.

- واو.. يعني هتقعد معانا كام يوم، حلو قوي وهنتسلَّى، أومال هي فين؟

تعجب أحمد في بادئ الأمر من لهجتها المتفائلة، لكنه الآن صاح مصدومًا:

- نعم ياختي؟ يعني إيه فين، هي مش هنا؟

- لا ماجاتْش أصلًا.

- ماجاتْش ازّاي، أنا موصّلها بنفسي لحد هنا ورُحت أجيب شنطتها... يا نهار أسوح، طب أعمل إيه دلوقتي؟! أنا هطلع أدوّر عليها، بس هدور عليها فين؟! ده أنا سايبها من نص ساعة!

- يا أحمد قلقتني فيه إيه؟ طب فهّمني إيه اللي حصل يمكن أقدر أساعدك.

أخرج أحمد هاتفه من جيبه وأخذ يتصل عليها، لكن ما من مجيب؛ فصاحت سارة بقلق:

- يا أحمد رد عليّا إيه اللي حصل وجنّة ليه ماطِلعِتْش؟

سرد عليها أحمد موجز ما حدث في المشفى؛ فشحبَ وجهها وأخذت تلحق بهشام أبشع السُباب، ثم تمتمَت بفزع ابتلع صوتها:

- طب هتكون راحت فين بس؟! ممكن تكون حبّت تتمشى لوحدها شوية.

- مش عارف.. أنا قلقان جدًا عليها، جنّة ماكانِتْش في وعيها، ولا حاسّة بحاجة حواليها.

باغتهم دخول مالِك فجأة عائدًا من عمله؛ فتساءل بملامح قلقة:

- مالها جنة؟

طالعه أحمد وسارة بصدمة ينظران لبعضهما البعض؛ فصاح ثانية:

- إيه اللي حصل؟ ما تنطقوا.

حاولت سارة تشتيت ذهنه قائلة:

- ما..مفيش حاجة، احنا بس..

قاطعها مالك متذمّرا:

- هششش.. اسكتِي انتِ، أنا عارف كُهن الستات ده ماباخُدْش منه لا حق ولا باطل.. انطق يا أحمد إيه اللي حصل مع جنة؟

قطع استخباراته صوت رنين هاتف أحمد؛ ليجد المتصل هشام؛ فهمهم بسرّه بشتائم فظّة وأغلق الخط، لكنه عاد متصلًا مرة أخرى؛ فرد أحمد عازمًا على أن يشفي غليله، وردّ صائحًا:

- انتَ ليك عين تتصل تاني بعد اللي حصل!

- فين جنة يا أحمد؟ أنا لازم أتكلم معاها.

- أنا ماشوفتش بجاحة كده.

- يووه، بقولّك فين جنة؟ بتصل عليها كتير مابتردش.

- انتَ كمان عايزها ترد عليك؟! ده عشم إبليس في الجنة، واطّمن جنّة أصلًا اختفت ومش لاقينها، يا رب تكون مبسوط دلوقتي.

أغلق الخط بوجهه ليجد مالك محدقًا به بوجه قانٍ يحتدم غضبًا، وصرخ به:

- إيه اللي سمعته دلوقتي؟ مين ده؟! وفين جنة؟ وإيه اللي حصل معاها؟! ماتنطقوا بقى ماتعصّبُونيش بسكوتكُم ده.

*****

على الجانب الآخر، نزع هشام الكانيولا من يده، ونهض عن فراشه وارتدى سترته بذراع واحد؛ حيث كان ذراعه الآخر معلقًا على صدره، أخذ سلاحه ووضعه بظهر بنطاله، ثم خرج من الغرفة، بل ومن المشفى بأسرها.

*****

خرج مالك وأحمد بحثًا عن جنة بعدما حكى أحمد الأمر برمته لأخيه، والذي أقسم إن رأى هشام مرة أخرى لن يكفيه فيه قتله، ومثل تلك

الأقاويل التي تُقَال في لحظات الغضب الشديد، أخذا يفتّشون الشوارع القريبة من منزلهم بالسيارة بحثًا عنها، بكل شبر وبوصة، لكن دون جدوى.

*****

في المربع السوري كانت تسير جنة بلا هُدَى يتراءَى لها في ذاكرتها ثنائيّ جميل، هنا كانا يتناولان الحلوي، وهنا كانا يشاهدان العرض الموسيقيّ، وهنا اعترف لها بحبه بطريقة غير مباشرة مستغلًّا عنوان رواية، وهنا حملها وركض بها الدرج ليحميها، لفّ رأسها وشعرَت بالغثيان فعزمَت على الرحيل، صارت باتجاه سنتر الأمريكية المجاور لجامعة ٦ أكتوبر حتى تخرُجَ إلى الشارع الرئيسى وتعبر الطريق إلى الناحية الأخرى؛ حيث الحي الأول والثاني، ولأول مرة تعبر هذا الطريق المرعب دون خوف؛ فقد حلّق عقلها بعيدًا حيث فراغ اللاوعي، وفي لحظة حاولَت سيارة الفرملة سريعة بصوت رهيب مفزع قبل حادثة محقّق وقوعها، لكنه لم يستطع وسقطت جنّة تنقلب على الأسفلت عدة مرات حتى استقرّت لتلاحظ أنها ما زالت حية واعية، جسدها لم يلمس الأرض في مرة من هؤلاء، لم يرتطم رأسها ولم ينجرح ظهرها ولم تتهشّم عظامها لتفتَح عينيها بطيئًا، وما زال قلبها ينتفض من هول الموقف لتجد نفسها مستقرة في حضنه يضمها بذراعه السليم، حدّقَت به غير مصدقة ما تراه، فهاك مرة أخرى ينقذُها من موت محقق، هو من يتألم فمن المؤكد أن كل الإصابات أخذها هو، علاوة على ذراعه الذي تستلقي هي بجسدها عليه الآن، انتبهَت لذلك فحاولت النهوض، لكن ساقيها

المرتعشتين لم تحملاها، ومع ذلك فوجئت بمن يساندها ليرفعها عنه؛ فوجدته مالك، والذي هتف بلهفة يتفقدها:

- جنة انتِ كويسة؟

أومأت بضعف قائلة:

- أنا كويسة ماتقلقش.

أشار مالك إلى أحمد بأن يأخذ جنة إلى سيارتهما، بينما أمسك مالكُ هشام من تلابيبه وصرخ بوجهه بغضب جمّ:

- من النهاردة إياك أشوفك بتقرّب منها، ده آخر تحذير ليك، وإلا وغلاوة ابني اللي لسّه ماشوفتوش مش هرحمك.

عاد مالك إلى سيارته وانطلقوا مغادرين، بينما ابتسم هشام في خضمّ آلامه؛ فقد سرّه ذلك النبأ أن مالك ينتظر مولودًا جديدًا وأملًا في حياة زوجية أفضل.

انطلقت السيارة التي كانت ستتسبَّب في الحادث بعد اطمئنان صاحبها أن أحدًا لم يتأذّ، وتيسّرَت الحركة المرورية بعدما توقّفَت دقائق، وأخذ هشام سيارته وعاد أدراجه.

*****

استقبلتهم سارة بقلق بدأ يتبدّد ما إن أبصرت جنة معهما؛ فأسرعت إليها واحتضنتها؛ فأشار لها مالك بالاهتمام بها دون أن يستزيد بكلمة واحدة، ففي تلك اللحظة فرّ الكلام من لسان كل امرئ منهم؛ فلا مزيد من القول الآن،

ما أفسده الآخرون لن يصلحه سواهم؛ فلا كلمات تشفي الصدور ولا تعاطف يداوي جرح القلوب، هكذا كان الأمر ببساطة.

ساعدت سارة جنة في الدخول إلى غرفة نوم الضيوف، ووضعت لها ثيابها في الدولاب قائلة بتردّد:

- جنة حبيبتي.. أنا هطلع أجيبلك العشاء عقبال ما تغيّري هدومك.

لم تحرك ساكنًا، وكأنها لم تسمعها أو لم تعِ وجودها من الأساس؛ فذمَّت سارة فمها بحزن وخرجت لتعد لها طعامًا.

استلقت جنة على فراشها تحدّق في اللاشيء، ربما غادرتها روحها لتثور بمكان آخر، فقد اشتكى الجسد من ثورتها العارمة بداخله؛ فتمزقت نياط قلبها، ذلك القلب المذنب، وأي ذنب ارتكبه؟! فذلك الحب الأول والذي حاولت دائمًا عدم الاقتراب منه لئلّا يُسحَق قلبها ممن لا يستحق، وحافظت عليه حتى تسلّمه لمن يصونه، لكن يبدو أن هذا ليس من نصيبها، وماذا كانت ستفعل؟ إذ لم يكن الأمر بيدها؛ فحين يتدخّل القلب لا يدع مجالًا للعقول البتّة، وإن كان القلب ليس قويًا كفاية وسمح للعقل بدخول ساحة المعركة، تظل المبارزة تحتدم وتحتدم بينهما حتى يسقط أحدهما شهيدًا.

*****

عاد هشام إلى منزله ليجد منيرة وحنين وعماد في وضع يُرثَى له، يجوبون مشارق الشقة ومغاربها يحملون هواتفهم على آذانهم بقلق عارم، حتى صاحت حنين:

- يا ماما يا عماد، هشام جِه.. كنت فين يا هشام؟

راحت منيرة تتفقّده بقلق قائلة:

- هشام كنت فين؟ انتَ كويس؟ كلّمونا من المستشفى وقالوا إنك سبتها ومشيت من غير ماتقول لحد.

رد هشام بمرارة:

- ماتقلقيش يا منيرة أنا كويس.

- كنت عندها صح؟ البت اللي جاتلَك المستشفى النهاردة مش كده؟

- يووه.. خلاص يا منيرة.

تدخل عماد مهدئًا الموقف:

- خلاص يا ماما، الحمد لله إنه بخير واتطّمنا عليه.

ثارت منيرة:

- لا مش خلاص، ده انتَ ماعملتهاش قبل ما تخطب، تيجي حتّة بت تضحك عليك بعد ما اسمك ارتبط بواحدة تانية.

- منيرة، هي ماكانِتْش تعرف أصلًا إني متنيّل خاطب.

- انتَ كمان بتدافع عنها، أنا عارفة النوع ده كويس...

قاطعها هشام يزأر ساخطًا:

- منيرة! مش هسمح أسمع في حقها أيّ كلمة وحشة.

- والله! ليه بقى إن شاء الله؟

- عشان بحبها.. أيوَه بحبها يا منيرة.

صعقت منيرة لسماعها هذا الكلام؛ فهمهمت:

- طب ولارا؟

ضحك هشام بمرارة، وقال لحنين يشير بيده إلى منيرة:

- شُفتي؟ مش قولتلك.. لارا.. هاه لارا.. اطمّني يا منيرة هنفّذلك رغبتك وهخطب الست لارا، والخطوبة في معادها ماتقلقيش.

- أنا مش قلقانة، ده أصلًا اللي المفروض تعمله.

تركهم هشام ودخل غرفته صافقًا الباب خلفه بقوة، جلس على سريره يمرر يده على وجهه بعصبية سرعان ما تحوّلَت إلى ضعف وانكسار، انهارت حصون قوته وأسوارها البائسة، يئِنّ قلبه ألمًا ووجعًا تحت أنقاضها؛ فانهمرت دموعه لأول مرة منذ فترة طويلة، والتي عادة تكون حينما يتذكّر والدته، لقد انتهى الأمر سريعًا عمّا كان يتخيل، وماذا كان يتصور إذن؟! إلى متى سيظل يخدعها ويخدع نفسه؟ فإن لم يكن من البداية أهلًا لتحمل مسئولية حب، فلمَ يخوضه من الأساس؟ أليس هو ببشرٍ أيضًا لربما حدث معه مثلما حدث مع جنّة فربح رهان القلب على العقل، ولا يعرف أنه يسلك طريق انتحاره.

*****

في ظهيرة اليوم التالي، ذهب هشام إلى شقة المنيل، وظل ينتظر شريكه قرابة الساعة ونصف حتى أتى؛ فضجر قائلًا:

- إيه يا عم كل ده! مش تراعي إني راجل متصاوب وتعبان.

ضحك الآخر وقال: معلش يافندم، يادوب عرفت أخلع منهم وجِيت

- قولتلي فيه أخبار جديدة.

- وأي أخبار يا فندم.. خلاص عرفنا مكان كارولين.

- أهي دي الأخبار ولّا بلاش.. هاه!

- من خلال مراقبتي له زي ما سعادتك أمرتني لقيته خرج من عندك من المستشفى لشقة في الزمالك، فضِلْت مستنِّيه لحد ما نزل ومشي، ولما سألت عرفت إنه مسكّن فيها واحدة أجنبية وإن دي شقة أخوه، أخوه مهاجر أمريكا وسايبهاله يأجرها، وطبعًا مش هيلاقي مكان أحسن من ده يخبيها فيه.

- طب وانت اتأكدت من إن هي اللي في الشقة دي؟

- حصل يا فندم، فضِلْت مستنّي قُدّام العمارة لحد ما لقيت بتاع دليفري جاي لها، عملت أنا بتاع الدليفري وطلعت أديها الأوردر، وهي اللي استلمته منّي.

تنهد هشام بارتياح وفرك كفّيه كمن يستعد لمؤامرة عاتية، وأردف:

- حلو قوي.. طبعًا انتَ فاهم هتعمل إيه؟

- ماتقلقش يافندم، كل حاجة جاهزة وهتحصل زي ما مرتبين لها بالظبط.

- تمام.. على خيرة الله.

*****

كانت جنّة تجلس في البراندة على الأريكة الخوصية تمسك بهاتفها تشاهد صورهما، وتلك الصورة وليدة عشقهما التي صوّرها أحمد بقصد التقاط صورة لسارة ومالك، تفكّر هل كان العشق الملتهب في عينيه مجرد أكذوبة؟ ولماذا إذن؟! تتذكر أنه كان يجلس محلّها قبل يومين ويقول أنه ليس بخاطبٍ، فتحت رسائل الواتساب بينهما ومضَت تقرأهما بآلام تخترق قلبها كالسهام المسمومة تسمع تسجيلاته الصوتية وتزيد في دموعها، ثم راحت تنقر على تسجيل المكالمات، وفتحت إحدى المكالمات التي سجّلتها خلسة، أكانت تخشى اليوم الذي لا يمكنها به سماع صوته؟! ربما؛ فقلب الأنثى غالبًا ما تصدُق تنبؤاته وإن أرادت عدم تصديقها.

دلفت سارة لتجد جنة تجلس على الأريكة الخوصية، تضم ركبتيها إلى صدرها وتدفن بهما وجهها، انفطَرَ قلب سارة على صديقتها، لا تدري كيف تواسيها؛ فكلما رأتها على ذلك الحال يهرب الكلام من لسانها؛ فلا تعرف ماذا تقول وأي كلام يمكنه شفاء القلوب المنكسرة؟! فذلك هو الألم الوحيد الذي لم يجدوا له دواءً حتى يومنا هذا، لذا نصيحتي إليكم صونوا قلوبكم ولا تسكنوا بها من لا يستحق.

تنهّدَت سارة بألم، وربتَت على ركبة صديقتها، وأردفت بصوت يشوبه الحزن:

- جنة حبيبتي، عشان خاطري انتِ ما أكلتِيش حاجة من امبارح، والأكل محطوط قُدّامك زي ما هو.

رفعت جنة رأسها، ومسحت دموعها المنسابة على وجنتيها، وقالت بوهن:

- صدّقيني يا سارة ماليش نفس.

- وعشان مين يا جنة بتعملي كل ده؟ صدقيني واحد كداب زي ده مايستاهلش ضفرك.. واحمدي ربنا إن اللي بينكم مش سنين ولا شهور طويلة، كنتي هتعملي إيه وقتها؟

- غلطانة يا سارة.. لما بتسلّمي قلبك لحد وتحبيه بجد لدرجة يبقى جزء من روحك.. لأ كل روحك، وقتها الوجع بيبقَى واحد مابيفرِقْش إذا كان حُبّ ساعة ولا عمر بحاله.

أطلقت تنهيدة كادت تشق صدرها، وأكملت:

- كل لحظة بينا كانت بعمر كامل إذا كانت مكالمة تليفون، أو مسدج، وفي قربه منّي، حتى لحظات سكوتنا عنينا كانت بتقول كل الكلام وبتسمعه ودادنا.. أنا بحبه قوي يا سارة.. بحبه قوي.

أطلقت العنان لبكائها؛ فاحتضنتها سارة تمسّد على ظهرها وقد سالت دموعها هي الأخرى.